

عنوان الورقة :
العمل الخيري المؤسسي في تاريخنا

مقدمها :

الشيخ / محمد صالح المنجد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا

محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فالعامل الخيري المؤسسي أو العمل من خلال مؤسسة أو العمل بالذهنية المؤسسية:

شكل من أشكال التعاون على الخير، وممارسته شكلاً ومضموناً، نصاً وروحاً، وأداء

العمل بنسق منظم قائم على أسس ومبادئ وأركان وقيم تنظيمية محددة (Organized Work).

وهذا العمل المؤسسي توجد في ثقافتنا كل المقومات اللازمة لنجاحه وإبداعه، فلا

عجب إذن من وجود نماذج رائعة لهذا العمل المؤسسي الخيري، سبقت فيه أمتنا كل

الأمم، وأبدعت فيه أيما إبداع.

❖ الشواهد من القرآن والسنة التي تُؤيد العمل الخيري المؤسسي :

إن العمل المؤسسي الخيري ترجمة عملية لمبادئ وقيم دينية عظيمة ومنها:

= إرساء مبدأ التعاون لبلوغ الأهداف الخيرية النبيلة وتحقيق عبودية الله:

قال تعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ).

فأمر سبحانه بالتعاون على أعمال الخير ومنها: الأعمال المؤسسية الخيرية

المنضبطة بضوابط الشريعة، قال ابن كثير: " يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على

فعل الخيرات، وهو البر، وترك المنكرات، وهو التقوى.

وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم". تفسير ابن كثير

(١٠/٢).

وقال العزُّ بن عبد السلام في هذه الآية الكريمة: " هذا نهي عن التسبب إلى

المفاسد، وأمر بالتسبب إلى تحصيل المصالح". القواعد والأصول الجامعة (١١).

= الاعتصام بالقرآن والسنة وهذا أبلغ ما يكون في حال اجتماع المؤمنين على

تحقيقه والاهتداء لسبيله: كما قال تعالى: (وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا).

فالعامل المؤسسي الخيري من جهة: فيه تجمع واعتصام على الحق ،
ومن جهة أخرى: يذلل حياة الناس ويزيل عوائق العبودية من طريقهم ليعتصموا
بالحق .

= دعم مفهوم نصره المسلم لإخوانه المسلمين:

فالعامل المؤسسي الخيري فيه اجتماع على نصره المسلمين ودعمهم في قضاياهم ،
وهذا الدعم مطلوب ، ولم يستغن عنه حتى الأنبياء؛ ولهذا قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ) .
أي : " من يساعطني في الدعوة إلى الله " البداية والنهاية (٨٥/٢) .
قال القاسمي: " وفيه بشاره للمؤمنين بالتأييد الرباني لهم ، ما داموا متناصرين على
الحق ، مجتمعين عليه " محاسن التأويل (٢٢٥/٩) .
فالتعاون الخيري إذا كان عبر عمل مؤسسي بين المسلم وإخوانه ، فإنه يشتد أثره
ويتقوى ، كما قال الله تعالى لموسى عليه السلام : (سَتَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ) .

= تحقيق ودعم مفهوم الأمة الواحدة والجسد الواحد :

كما قال تعالى: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) . وقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَ مِنْهُ عُضْوٌ
دَعَا إِلَى سَائِرِ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى) رواه البخاري (رقم ٦٠١١) ومسلم (رقم ٢٥٨٦) .
والحديث صريح " في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض وحثهم على
التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم وكلمة مكرهه " شرح النووي على مسلم .

= دعم قيم استباق الخيرات والمشاركة في أعمال الخير:

العمل الخيري المؤسسي من أنجح السبل لتحقيق هذه المسابقة والمشاركة إلى
الخيرات ، ففيه طاعة لله سبحانه ، وتحقيق لها في الواقع ، مع التنسيق والتكامل وحسن

الإدارة لتحقيق أعلى مستوى أدائي من العمل الخيري، قال تعالى: (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) وقال: (وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) ، وقال تعالى: (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) ❖ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) .

= الاجتماع على الخير يضاعف البركات، ويدعم مواطن القوة، ويقاوم العقبات
ففي العمل الخيري المؤسسي دعم وتقوية للمؤمن من إخوانه المؤمنين، بحيث يصير البناء قويا متماسكا، مع ما يصاحب ذلك من بركات الاجتماع ومضاعفة النتائج والأجور المترتبة على هذا العمل.

قال ابن القيم رحمه الله: "فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَنْتَفِعُ بَعْضُهُمْ بِعَمَلِ بَعْضٍ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي يَشْتَرِكُونَ فِيهَا كَالصَّلَاةِ فِي جَمَاعَةٍ فَإِنْ كَلَّ وَاحِدٌ مِنْهُمْ تَضَاعَفَ صَلَاتُهُ إِلَى سَبْعَةٍ وَعَشْرِينَ ضِعْفًا لِمَشَارَكَةِ غَيْرِهِ لَهُ فِي الصَّلَاةِ فَعَمَلٌ غَيْرُهُ كَانَ سَبَبًا لَزِيَادَةِ أَجْرِهِ كَمَا أَنَّ عَمَلَهُ سَبَبٌ لَزِيَادَةِ أَجْرِ الْآخَرِ ... وَكَذَلِكَ اشْتَرَاكَ فِي الْجِهَادِ وَالْحَجِّ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ) متفق عليه. وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا بِأَمْرِ الدِّينِ أَوْلَى مِنْهُ بِأُمُورِ الدُّنْيَا" الروح ص ١٢٨.

❖ نماذج من الأعمال المؤسسية الخيرية عبر التاريخ الإسلامي

الأعمال الخيرية سمة بارزة لخيرامة أخرجت لرسالة عظيمة، أخرجت للناس، فلا أنانية فيها، ولا أثرة، بل حب الخير للجميع، والحرص على إيصال النفع بشتى الطرق والوسائل المشروعة،

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ

بِاللَّهِ)

(أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) أي: "أُظْهِرَتْ لِلنَّاسِ حَتَّى تَمَيَّزَتْ وَعُرِفَتْ وَفُضِّلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ غَيْرِهَا

". تفسير الرازي (٣٢٥/٨).

وهم خير الأمم وأنفع الناس للناس . تفسير ابن كثير (٩٣/٢).

ومن مظاهر تمييز هذه الأمة وأبرز الدلائل على رسوخ معنى الخير، و مشاعر البر

والتراحم ، وعمق جذوره في تاريخها : كثرة وتنوع المؤسسات التي تعنى بخير الإنسان.

وهذه المؤسسات ليست بالصورة التي استقرت عليها في واقعنا المعاصر، ولكنها

كانت صورة مشرقة في جبين الأمة الإسلامية تتناسب عصرها، في وقت لم يكن يعرف

العالم شيئاً عن العمل المؤسسي الخيري.

ومن المعالم البارزة في تلك المؤسسات: نجاحها واستمرارها وبقاؤها على مدى

أجيال بل وقرون في أداء رسالتها وعدم توقفها عقب وفاة مؤسسها، وذلك بفضل الله

تعالى، ثم بفضل نظام الوقف الإسلامي، الذي كان يمد كل المؤسسات الخيرية بالموارد

المالية التي تعينها على أداء رسالتها النبيلة .

كانت هذه المؤسسات نوعين:

نوعاً تنشئه الدولة وتوقف عليه الأوقاف الواسعة،

ونوعاً ينشئه الأفراد من أمراء وقواد وأغنياء ونساء.

وقد تأسست المؤسسات الخيرية في الاسلام ودعمت بواسطة الهيئات الخيرية على

صورة أوقاف، كانت تخصص للدعم المستمر للعديد من المؤسسات.

ومنذ ظهور الوقف في القرن الأول الإسلامي، والذي كان يستخدم في دعم عدد

عظيم من المؤسسات الخيرية كالمساجد والمدارس والمكتبات والمدافن وقوافل الحجاج

وإغاثة الفقراء، منذ ظهوره أوضح الدفعة القوية الواضحة للمؤسسات الخيرية الوثيقة الصلة بحياة الناس .

ولا نستطيع في مثل هذا الحديث أن نعدد أنواع المؤسسات الخيرية كلها، ولكن حسبنا أن نلمّ بأهمها:

❖ المؤسسات الخيرية الصحية...المستشفيات والمراكز الصحية

فقد كان التاريخ الإسلامي حافلاً بإقامة المشافي والمعاهد الطبية، وتخريج الأطباء الذين لا تزال الإنسانية تفخر بأياديهم على العلم عامة والطب خاصة.

❖ أنواع المستشفيات

وكانت المستشفيات نوعين:

نوعاً متنقلاً،

ونوعاً ثابتاً.

= أما المتقل فأول ما عُرف في الإسلام في عهد النبي صلى الله عليه وسلم،

وكانت أول نواة لهذه المستشفيات هي: خيمة رفيدة الأنصارية أو الأسلمية رضي الله عنها، وكانت محتسبة، احترفت التمريض، وأحبت التطبيب والمداواة، وتفوّقت في ذلك حتى اشتهرت، وعُرفت بين الناس، وكانت تساعد بعض الصحابييات في مؤسستها الصحية الصغيرة التي كانت تُقام في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم عند الحاجة. وقد ذاع صيت خيمة رفيدة رضي الله عنها بين معاصريها في فن التمريض والتطبيب، ولهذا السبب اختارها الرسول صلى الله عليه وسلم لعلاج سعد بن معاذ رضي الله عنه بعد غزوة الخندق، ف" قَدْ قَالَ لِقَوْمِهِ حِينَ أَصَابَهُ السَّهْمُ بِالْخُنْدَقِ: (اجْعَلُوهُ فِي خَيْمَةِ رُفَيْدَةَ حَتَّى أَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ)" سيرة ابن هشام (٢/٢٣٩)، وتفصيل القصة في: مسلم

(١٧٦٩)، وعند البخاري في الأدب المفرد (١١٢٩)، وصحَّحه الحافظ ابن حجر في الإصابة (١١١٧٥)، والألباني في صحيح الأدب المفرد (٨٦٣).

وهذه الخيمة كانت تتحول إلى مستشفى متنقل في الغزوات، تستضيف الجرحى، تضمُّ جراحاتهم، وتُسعفهم، وبهذا تُعد أول مستشفى حربي متنقل. ثم توسع الخلفاء والملوك من بعد، حتى أصبح المستشفى المتنقل مجهزاً بجميع ما يحتاجه المرضى، من علاج وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة، وكان ينقل إلى القرى التي ليس بها مستشفيات محمولاً على مجموعة كبيرة من الجمال لوصلت في بعض الأحيان إلى أربعين جملاً!! وذلك في عهد السلطان محمود السلجوقي رحمه الله والذي حكم من سنة ٥١١ هـ إلى سنة ٥٢٥ هـ. ينظر: من روائع حضارتنا ص ١٠٨.

= وأما المستشفيات الثابتة:

- فقد أنشئ أول مستشفى في الإسلام في عهد الوليد بن عبد الملك (٨٨ هـ)، ووظف فيه الأطباء، وأجرى لهم الأرزاق [الرواتب]. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي (٢٦٧/٤)، خطط الشام (١٥٧/٦).

ثم تتابع إنشاء المشافي، وقد كانت تعرف باسم: البيمارستانات، والبيمارستان "لفظة فارسية الأصل مُركَّبة من كلمة "بيمار"، وتعني: مريض أو مُصاب، و"ستان" وتعني داراً.

وبهذا يكون معنى "بيمارستان" "دار المرضى". الصحاح للجوهري (٩٧٨/٣). واختُصرت في ما بعد في الاستعمال فأصبحت تُلفظ "مارستان". وأُطلقت هذه اللفظة على المستشفيات في العصور الإسلامية، وأخذت أحياناً تسمية أخرى هي: "دار الشفاء".

❖ أقسام البيمارستان:

كانت تقسم إلى قسمين منفصلين: قسم للذكور، وقسم للإناث،

وكل قسم فيه قاعات متعددة، كل واحدة منها لنوع من الأمراض، فمنها للأمراض الداخلية، ومنها للعيون، ومنها للجراحة، ومنها للكسور والتجبير، ومنها للأمراض العقلية .

وقسم الأمراض الداخلية كان مقسماً إلى غرف أيضاً، فغُرف منها للحميّات، وغرف للإسهال، وغير ذلك .

وكان كل جناح بأقسامه مُجهَّزاً بما يحتاجه من آلات ، ومُعدّات ، وخدم ، وفرّاشين من الرجال والنساء ، وقوَّام ومُشرفين .

❖ مواقع البيمارستانات : كانت البيمارستانات تقام في أحسن الأماكن موقِعاً ، على الرُبُوات ، أو بجوار الأنهار .

❖ توظيف الأطباء فيها : أوكل أمرُ التطبيب فيها إلى أطباء انْتُخِبُوا بعد الامتحان عن جدارة وكفاءة .

"وكان لا يسمح للطبيب بالانفراد بالمعالجة حتى يؤدي امتحاناً أمام كبير أطباء الدولة، يتقدم إليه برسالة في الفن الذي يريد الحصول على الإجازة في معاناته، وهي من تأليفه أو تأليف أحد كبار علماء الطب، له عليها دراسات وشروح، فيمتحنه فيها ويسأله عن كل ما يتعلق بما فيها من الفن، فإذا أحسن الإجابة أجازته كبير الأطباء بما يسمح له بمزاولة مهنة الطب.

وقد اتفق في عام (٣١٩هـ - ٩٣١م) في أيام الخليفة المقتدر أن بعض الأطباء أخطأ في علاج رجل فمات، فأمر الخليفة أن يمتحن جميع أطباء بغداد من جديد، فامتحانهم كبير أطباء بغداد، فبلغ عددهم في بغداد وحدها ثمانمائة طبيب ونيفاً وستين طبيباً، هذا عدا من لم يمتحنوا من مشاهير الأطباء، وعدا أطباء الخليفة والوزراء والأمراء . من روائع حضارتنا ص ١٠٧ .

❖ الإدارة : كان لكل بيمارستان رئيس للأطباء يسمى ساعور البيمارستان ، ولكل قسم من أقسامه رئيس . فكان فيه رئيس للأمراض الباطنية ، ورئيس للجراحين ، ورئيس للكحّالين .

وكان النظر على البيمارستان معدوداً من الوظائف الديوانية العظيمة .
❖ تنظيم العمل: كان الأطباء يشتغلون بالنوبة ، ولكل طبيب وقت معين يلزم فيه قاعاته التي يعالج فيها المرضى .

❖ المعاهد الصحية : وكانت المستشفيات معاهد طبية أيضاً ، ففي كل مستشفى إيوان كبير [قاعة كبيرة] للمحاضرات ، يجلس فيه كبير الأطباء ومعه الأطباء والطلاب ، وبجانبيهم الآلات والكتب ، فيقعد التلاميذ بين يدي معلمهم ، بعد أن يتفقدوا المرضى وينتهوا من علاجهم ، ثم تجري المباحث الطبية والمناقشات بين الأستاذ وتلاميذه ، والقراءة في الكتب الطبية ، وكثيراً ما كان الأستاذ يصطحب معه تلاميذه إلى داخل المستشفى ليقوم بإجراء الدروس العلمية لطلابه على المرضى بحضورهم ، كما يقع اليوم في المستشفيات التعليمية أو الجامعية الملحقة بكليات الطب.

قال ابن أبي أصيبعة ، وهو ممن درس الطب في البيمارستان النوري بدمشق : "كنت بعدما يفرغ الحكيم مهذب الدين ، والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان وأنا معهم ، أجلس مع الشيخ رضي الدين الرحي فأعابني كيفية استدلاله على الأمراض وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم ، وأبحث معه في كثير من الأمراض ومداواتها . عيون الأنبياء في طبقات الأطباء ص ٧٣٢ .

❖ أمانات المستشفى: فكان من دقة عملهم أنه " إذا جيء بالمريض تنزع ثيابه ونفقته وتحفظ عند أمين المارستان ، ثم يلبس ثيابا ويفرش له ويغدى عليه ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ ، فإذا أكل فزوجا ورغيفا كعلامة على شفائه[أمر

بالانصراف وأعطى ماله وثيابه" المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي
(٢٦٧/٤).

❖ تمويل المستشفيات : كانت عائدات هذه الأوقاف هي الدخل الأساسي الذي
يفي بحاجات البيمارستان من طعام ، ولباس ، وأدوية ، ورواتب الأطباء والمُمرضين ،
وبقية العاملين في المؤسسة.

❖ أما نظام الدخول إلى المستشفيات: " فقد كان مجاناً للجميع، لا فرق بين غني
وفقير وبعيد وقريب، ونابه وخامل، يُفحص المرضى أولاً بالقاعة الخارجية، فمن كان به
مرض خفيف يكتب له العلاج، ويصرف من صيدلية المستشفى، ومن كانت حالته
المرضية تستوجب دخوله المستشفى كان يقيد اسمه، ويدخل إلى الحمام، وتخلع عنه ثيابه
فتوضع في مخزن خاص، ثم يعطى له سرير مفروش بأثاث جيد، ثم يعطى الدواء الذي
يعينه الطبيب، والغذاء الموافق لصحته، بالمقدار المفروض له، فإذا أصبح في دور النقاهة
أدخل القاعة المخصصة للناهين، حتى إذا تم شفاؤه أُعطي بدلة من الثياب الجديدة،
ومبلغاً من المال يكفيه إلى أن يصبح قادراً على العمل" من روائع حضارتنا ص ١١٠ .

ومن أقسام البيمارستان : خزانة الشراب والمكتبة والمصلّى .

❖ خزانة الشراب : هي الصيدلية الملحقة بالبيمارستان .

❖ المكتبات : كان يلحق بكل مستشفى مكتبة عامرة بكتب الطب وغيرها
مما يحتاجه الأطباء وتلاميذهم، حتى قالوا: إنه كان في مستشفى ابن طولون بالقاهرة
خزانة كتب تحتوي على ما يزيد على مائة ألف مجلد في سائر العلوم.

❖ المصلّى : وكان فيها أيضاً أماكن مُخصّصة للصلاة .

❖ وكانت غرف المستشفى نظيفة ، وقاعاته مفروشة بأحسن الأثاث، ولكل مستشفى مفتشون على النظافة، ومراقبون للقيود المالية، وكثيراً ما كان الخليفة أو الأمير يتفقد بنفسه المرضى، ويُشرف على حسن معاملتهم.

هذا هو النظام السائد في جميع المستشفيات التي كانت قائمة في العالم الإسلامي، سواء في المغرب أم المشرق... في مستشفيات بغداد ودمشق والقاهرة والقدس ومكة والمدينة والمغرب والأندلس..

= أمثلة على بعض مستشفيات بعينها من عواصم الإسلام في عصور مختلفة:

- **المستشفى العُضدي ببغداد** : فُتِح في سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة: " أنشأه عضدُ الدولة في الجانب الغربي من بغداد، ورتَّب فيه الأطباء والوكلاء والخُزَّان وكلَّ ما يُحتاج إليه" تاريخ الإسلام (٤٧٣/٢٦).

"وأنفق عليه مالاً عظيماً وجمع له من الأطباء أربعة وعشرين طبيباً، وألحق به كل ما يحتاج إليه من مكتبة علمية وصيدلية ومطابخ ومخازن". من روائع حضارتنا ص ١١٠ .

- **المستشفى النوري الكبير بدمشق**: أنشأه السلطان نور الدين محمود بن زنكي (سنة ٥٤٩هـ - ١١٥٤م) وكان حين بنائه من أحسن ما بُني من المستشفيات في البلاد كلها، قال عنه الرَّحالة ابن جبير: "مفخر عظيم من مفاخر الإسلام" رحلة ابن جبير ص ٢٣٢ .

وشرط فيه أنه على الفقراء والمساكين، وإذا اضطر الأغنياء إلى الأدوية التي فيه يسمح لهم بها، وكان الشراب فيه والدواء مباحاً لكل مريض يقصده.

وكان يدرس فيه الطب أيضاً ، وقد استمر هذا المستشفى يقوم بعمله العظيم حتى سنة ١٣١٧هـ، حيث أنشئ مستشفى الغرباء، فأقفل المستشفى النوري، ثم استعمل مدرسة أهلية. من روائع حضارتنا ص ١١٣، خطط الشام (١٥٩/٦) .

- **المستشفى المنصوري الكبير بمصر**: المعروف بمارستان قلاوون، كان داراً لبعض الأمراء، فحوَّلها الملك المنصور سيف الدين قلاوون إلى مستشفى (عام ٦٨٣هـ -

١٣٠٨م)، وأوقف عليه ما يغل عليه ألف درهم في كل سنة، ألحق به مسجداً ومدرسة ومكتباً للأيتام.

ورتب فيه العقاقير والأطباء وسائر ما يحتاج إليه من به مرض من الأمراض، وأفرد مكانا لطبخ الطعام والأدوية والأشربة، ومكانا لتركيب المعاجين والأكحال ونحوها، وجعل مكانا يفرق فيه الأشربة والأدوية، ومكانا يجلس فيه رئيس أطباء لإلقاء درس طب، ولم يحص عدّة المرضى بل جعله سبيلا لكل من يرد عليه من غنيّ وفقير، ولا حدّد مدّة لإقامة المريض به، بل يرتب منه لمن هو مريض بداره سائر ما يحتاج إليه . وأدى هذا المستشفى عمله الخيري الجليل حتى أخبر أطباء العيون الذين عملوا فيه أنه كان يعالج فيه كل يوم من المرضى الداخلين إليه والناقهين الخارجين أربعة آلاف نفس.

وإتماما لرسالة هذه المؤسسة الخيرية: كان لا يخرج منه كل من يبرأ من مرض حتى يُعطى كسوة للباسه ودراهم لنفقاته حتى لا يضطرّ للالتجاء إلى العمل الشاق فور خروجه.

ومن أروع ما فيه أيضاً، النص في وقفيته: على أن يُقدم طعام كل مريض بزبديّة خاصة به من غير أن يستعملها مريض آخر، ووجوب تغطيتها وإيصالها إلى المريض بهذا الشكل...

ورتب فيه عدّة: ما بين أمين ومباشر، وجعل مباشرين للإدارة، وهم الذين يضبطون ما يشتري من أصناف، وما يحضر منها إلى المارستان، ومباشرين لاستخراج مال الوقف، ومباشرين في المطبخ، ومباشرين في عمارة الأوقاف التي تتعلق به . المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٤/٢٦٩).

ونختم الحديث عن المؤسسات الصحية الخيرية: بنتيجة نحب أن نلفت الأنظار إليها وهي: أننا في حضارتنا كنا أسبق من الغربيين في تنظيم المستشفيات بتسعة قرون على الأقل..

ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا غارقة في الجهل ولا تعرف شيئاً عن المؤسسات الصحية؛ كانت مستشفياتنا في قمة الرقي والدقة والترتيب والنظافة والصيانة ، وقد قال المستشرق الألماني ماكس مايرهوف: " إن المستشفيات العربية ونظم الصحة في البلاد الإسلامية الغابرة لتلقي علينا درساً قاسياً مُراً لا نقدره حق قدره إلا بعد القيام بمقارنة بسيطة مع مستشفيات أوروبا في ذلك الزمن نفسه" .

❖ ومن المؤسسات الخيرية في تاريخنا: المؤسسات التعليمية ومنها: المدارس

كان أغلب التعليم في صدر الإسلام في المساجد ، في حلقات للعلم حيث يلتف طلاب العلم حول شيخهم ينهلون من علمه .

وفي القرن الرابع الهجري بدأت نشأة المدارس كمؤسسة علمية خيرية .

وهي ببساطة عبارة عن بناء يتبرع به أحد المحتسبين ، أو يُبنى على نفقته ، ويُعَيَّن له قيمٌ أو ناظرٌ ، وتُوقَفُ عليه أوقافٌ ؛ للإنفاق على طلبة العلم ، والمدرّسين فيها .

وكان من أهداف تلك المدارس:

- توفير جو علمي يساعد الأساتذة والمعلمين على أن يفكروا ويؤلفوا ويبتكروا؛ فيضيفوا كل جديد إلى العلوم المختلفة بصفة مستمرة .

- نشر الفكر السني لمواجهة تحديات الفكر الشيعي ويعمل على تقليص نفوذه .

= نظام تلك المدارس:

كان التعليم في تلك المدارس مجانياً ولمختلف الطبقات. وكانت الدراسة فيها

قسامين:

قسماً داخلياً: للغرباء والذين لا تساعدهم أحوالهم المادية علي أن يعيشوا علي

نفقات آباءهم. وقسماً خارجياً: لمن يريد أن يرجع في المساء إلى بيت أهله وذويه.

وكان القسم الداخلي يهيأ للطالب فيه الطعام والنوم والمطالعة والعبادة. وكانت كل مدرسة تحتوي علي مسجد، وقاعات للدراسة، وغرف لنوم الطلاب، ومكتبة، ومطبخ وحمام. وكانت بعض المدارس تحتوي فوق ذلك على ملاعب للرياضة البدنية في الهواء الطلق.

وكانت المدارس متعددة الغايات:

فمنها: مدارس لتدريس القرآن الكريم وتفسيره وتحفيظه وقرآته،
ومنها: مدارس للحديث خاصة،
ومنها: مدارس للفقه، لكل فقه من المذاهب الأربعة مدارس خاصة به،
ومنها: مدارس للطب،
ومنها: مدارس للأيتام.

ومن نماذج هذه المؤسسات التعليمية التي غمرت العالم الإسلامي كله:

- المدرسة المستنصرية: قال ابن كثير: "ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وستمائة فيها كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد ولم يبن مدرسة قبلها مثلها، ووُقِّعت على المذاهب الأربعة من كل طائفة اثنان وستون فقيهاً، وأربعة معيدين، ومدرّس لكل مذهب، وشيخ حديث وقارئان وعشرة مُستمعين، وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب، ومكتب للأيتام وقدر لجميع من الحُبز واللحم والحلوى والنّفقة ما فيه كفاية وأفرة لكل واحدٍ البداية والنهاية (١٦٣/١٣).

"ونقل إليها الكتب وهي مائة وستون حملاً سوى ما نُقل إليها فيما بعد" تاريخ الإسلام (٦/٤٦).

وكانت ميزانيتها ضخمة جداً، وصفها الإمام الذهبي فقال: "تسعمائة ألف دينار فيما يُخال إلي، ولا أعلم وفقاً في الدنيا يقاربُ وقفها أصلاً سوى أوقاف جامع دمشق،

وقد يكون وقفها أوسع... وحدتني الثقة أنّ ارتفاع وقفها بلغ في بعض السنين وجاء نيّماً وسبعين ألف مثقال ذهب" تاريخ الإسلام (٧/٤٦).

- المدارس النظامية (٤٥٩هـ) في بغداد: وهي بداية سلسلة مؤسسات تعليمية

أنشأها الوزير نظام الملّك السلجوقي ، وبدأ التفكير الفعلي في إنشاء هذه المدارس النظامية للوقوف أمام المد الشيوعي الإمامي والإسماعيلي الباطني .

فملاً هذا الوزير بلاد العراق وخراسان بالمدارس حتى قيل فيه: إن له في كل مدينة

بالعراق وخراسان مدرسة، وكان ينشئ المدارس حتى في الأماكن النائية، وكلما وجد

في بلدة عالماً قد تميز وتبحر في العلم بنى له مدرسة ووقف عليها وقفا وجعل فيها دار كتب.

= وقد كانت هذه المؤسسات التعليمية التابعة للوزير نظام الملّك روعة في العمل

المؤسسي:

فقد أبدى نظام الملّك اهتماماً كبيراً بوسائل تحقيق أهداف المدارس النظامية:

- فاختر المواقع الجغرافية الذي يمكن أن تثمر فيها : ف: " بنى مدرسة ببغداد

ومدرسة ببلخ ومدرسة بنيسابور ومدرسة بهراة ومدرسة بأصبهان ومدرسة بالبصرة

ومدرسة بمرّو ومدرسة بآمل وطبرستان ومدرسة بالموصل. ويُقال: إن له في كل مدينة

بالعراق وخراسان مدرسة" طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣١٤/٤).

فأنشأ كبرى مدارس في بعض المدن التي تحتل مركز القيادة والتوجيه

الفكري، كبغداد ، حيث كانت عاصمة للخلافة العباسية السنية، ويتركز فيها عدد

كبير من المفكرين السنيين أيضاً.

وأصفهان كانت عاصمة للسلطنة السلجوقية في عهد ألب أرسلان وملكشاه

(عصر نظام الملّك)، و في البصرة ونيسابور وطبرستان، وخرزستان، والجزيرة الفراتية

وكانت هذه المناطق التي كانت مركزاً لتجمع شيوعي في تلك الفترة .

فهذا التوزيع الجغرافي يشير بوضوح إلى أن وضع المدارس النظامية في الأماكن السابقة كان أمراً مقصوداً ومدروساً حتى تقوم بدورها في محاربة الفكر الشيعي في هذه المناطق، وتفتح الطريق أمام غلبة المذهب السني.

- واختار المدرسين والعلماء المميزين: بعناية تامة بحيث كانوا أعلام عصرهم في علوم الشريعة، ومن تفرّس فيه صلاحية الولاية ولأه.. ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه، ورتّب له ما يكفي حتى ينقطع إلى إفاضة العلم ونشره وتدريسه.

وفي بعض الأحيان كان نظامُ الملك يكتشف الأستاذ أولاً فيبني له مدرسة باسمه، حدث هذا مع الشيخ أبي إسحاق الشيرازي (ت ٤٧٦هـ) الذي بنى له نظامية بغداد، ومع إمام الحرمين الذي بنى له نظامية نيسابور .

، وأظهر ذكاء ملحوظاً في تحديد المنهج العلمي الذي ستسير عليه، ثم بذل أقصى جهوده لتوفير الإمكانيات المادية التي تعين هذه المدارس على العطاء الفكري السخي.

- واختار منهج الدراسة: ويتضح هذا المنهج مما ورد في وثيقة وقفية نظامية ببغداد من أنها: "وقف على أصحاب الشافعي أصلاً وفرعاً".

- ووفر الدعم المادي والميزانية بعناية وكرم: فلم يبخل نظام الملك بتوفير

الإمكانيات المادية التي تعين هذه المدارس على النهوض برسالتها على أكمل وجه، ولذا نراه ينفق عليها بسخاء ويخصص لها الأوقاف الواسعة، بل قال المقرئزي أنها: "أول مدرسة قرّر بها للفقهاء معالم (رواتب) المواعظ والاعتبار (٤/١٩٩).

ويذكر ابن الجوزي أن نظام الملك وقف على مدرسته ببغداد ضياعاً وأملاكاً، وسوقاً بُنيت على بابها، وأنه فرض لكل مدرس وعامل بها قسطاً من الوقف، وأجرى للمتفقهة أربعة أرتال خبز يومياً لكل واحد منهم .

أما مدرسة أصفهان فقدّرت نفقاتها وقيمة أوقافها بعشرة آلاف دينار، وكان

للمدرسة النظامية في نيسابور أوقاف عظيمة. ينظر: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك (١٦/١١٧).

واهتم نظام الملك بتوفير السكن للطلاب داخل هذه المدارس
- كما اهتم بتوفير المراجع العلمية داخل هذه المدارس: حرصا على تهيئة المناخ
العلمي الذي يساعدهم على الدراسة والبحث ، فكانت في كل مدرسة مكتبة عامرة
يتولى أمرها قوَّام على شؤونها.

وكان نظام الملك يتفقد هذه المدارس خاصة نظامية بغداد.
والمتتبع لطريقة إدارة مؤسسات التعليم الخيرية التي بناها الوزير نظام الملك، يجد
فكرا مؤسسيا راقيا، وإدارة متقدمة، ومراقبة فعالة، وجودة عالية في الأداء، مما يسر
سبل العلم فيها، وتوفير الحياة الكريمة بداخلها، ورواج سوق العلم بها، فأقبل عليها
طلاب العلم والجاه حتى بلغ عددهم في نظامية بغداد سنة ٤٨٨هـ ثلاثمائة طالب كانوا
يتفقهون على الغزالي رحمه الله تعالى.

أما نظامية نيسابور فكان يقعد بين يدي إمام الحرمين كل يوم نحو من ثلاثمائة
رجل من الأئمة ومن الطلبة. استفدت من مقال: المدارس النظامية في عهد السلاجقة
للدكتور علي محمد الصلابي .

ولكثرة تلك المؤسسات التعليمية في تاريخنا؛ نجد أن بعض العلماء مثل النعماني
وهو من علماء القرن العاشر الهجري، له كتاب في المدارس التي أنشئت في العالم
الإسلامي وهو مطبوع في مجلدين واسمه: "الدارس في تاريخ المدارس".

♦ المكتبات الخاصة والعامة

مما يتصل بالحديث عن المؤسسات الخيرية والعلمية في حضارتنا: الحديث عن المكتبات.
فقد كانت منارات للتعليم، ومؤسسات ينفق عليها الأمراء والأثرياء والعلماء وأهل
الخير من التجار، لينتشر العلم بين الناس، وخصوصاً في ذلك الزمن الذي لم تكن فيها
الطباعة موجودة، وكانت الكتب تنسخ على أيدي نساخين متخصصين لهذا العمل.

فكان يبلغ بذلك ثمن الكتاب حداً قد يتعذر على طالب العلم أو العالم الفقير شراؤه، فكيف إذا أراد أن تكون له مجموعة من الكتب في الفن أو العلم الذي يتخصص فيه؟

= وصف المكتبات:

كان للمكتبات العامة موظفون يرأسهم خازن المكتبة، وهو دائماً من أشهر علماء عصره، ومناولون يناولون الكتب للمطالعين، ومترجمون ينقلون الكتب من غير العربية إلى العربية، ونساخ يكتبون الكتب بخطوطهم الجميلة، ومجلدون يجلدون الكتب لتحفظ من التمزق والضياع، هذا عدا الخدم وغيرهم ممن تقتضيهم حاجة المكتبات.

وكان لكل مكتبة صغيرة أو كبيرة فهراس يُرجع إليها لسهولة استعمال الكتب، وهي مبوبة بحسب أبواب العلم، وبجانب هذا كانت توضع قائمة على كل دولا ب تحتوي أسماء الكتب الموجودة في الدولا ب.

وكان من المعروف في نظام المكتبات أن الاستعارة الخارجية مسموحة في أغلبها لقاء ضمان عن الكتاب من عامة الناس، أما العلماء وذوو الفضل فلم يؤخذ منهم ضمان = أما الموارد المالية التي كانت تقوم بنفقات المكتبات: فمنها ما كان من الأوقاف التي تنشأ من أجلها خاصة، وهذه حال أكثر المكتبات العامة ومنها ما كان من عطايا الأمراء والأغنياء والعلماء الذين يؤسسون تلك المكتبات .

ومن أشهر المكتبات في التاريخ الإسلامي :

١ = بيت الحكمة ببغداد : ومؤسسها الحقيقي هو هارون الرشيد [١٧٠]-

١٩٣ هـ/٧٨٦-٨٠٨م]

وقد كان كثير الاهتمام بالعلوم ، وترجمة كتبها من اللغات المختلفة ، فاتسعت دار الترجمة ، وزاد عدد الموظفين المشتغلين بها .

وتألق في عصره نجم عدد من العلماء ؛ فأراد مكاناً لتحفظ فيه الكتب التي جمعها ، فأنشأ بيت الحكمة الذي تطور فيما بعد وأصبح أشهر أكاديمية علمية عُرفت في التاريخ .

ووصف ويل ديورانت في كتابه قصة الحضارة (١٧٧/١٣) بيت الحكمة بقوله: " وهو مجمع علمي".

ويقول ابن خلدون: " إن الإسلام مدين إلى هذا المعهد العلمي باليقظة الإسلامية الكبرى التي اهتزت بها أرجاؤه".

أقسام بيت الحكمة : نشأ بيت الحكمة أولاً كمكتبة حوت كتب جميع الفنون ثم أصبح مركزاً للترجمة ، ثم مركزاً للبحث والتأليف ، ثم ما لبث أن أصبح داراً للعلم يَمُّ إعطاء الدروس فيها ، ومنح الإجازات العلمية ، وتُعقد فيها الحوارات والمناظرات ، ثم أُلحق بها بعد ذلك مرصدٌ فلكيٌّ .

إدارة بيت الحكمة : تعاقب على إدارة بيت الحكمة في بغداد عددٌ من المديرين العلماء ، وكان يُطلقُ على المدير لقب "صاحب" ، فكان مدير بيت الحكمة يُسمَّى صاحب بيت الحكمة.

٢ = مكتبة قرطبة : أنشئت هذه المكتبة في عصر محمد الأول عام ٢٣٨ - ٢٧٢هـ / ٨٥٣-٨٨٧ م .

نبذة تاريخية : عندما تولى الحاكم الأموي عبد الرحمن الناصر حكم الأندلس [عام ٣٠٠-٣٥٠هـ / ٩١٣-٩٦٢م] . والذي اشتهر بحبه للكتب حتى بلغت شهرته الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع الذي لم يجد شيئاً يتقرَّب به إلى قلب الناصر حينما عزم على عقد معاهدة معه سوى أن يُهديه كتاباً جديداً !
وحبُّ الناصر للكتب جعله يهتم بمكتبة القصر الملكية وذلك بتزويدها بكل ما هو نفيس من الكتب ، ثم سار على منهاجه في جمع الكتب ولداه أيضاً .

وفى عام ٣٥٠هـ / ٩٦٢م. تولى مسئولية المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمن الناصر لدين الله الذي كان شغفه بالكتب والمكتبات ومقدار اهتمامه بالعلم والعلماء كبيراً .

فجعل الحكم كل هدفه السير بالأندلس قدما في طريق العلم والمعرفة ، فوجّه الحكم جُلَّ اهتمامه إلى بناء وتنمية مكتبته الخاصة ؛ فنشر رجاله في كل مراكز الثقافة الإسلامية يبحثون عن النادر من الكتب والمخطوطات ، ويدفعون أغلى الأثمان ؛ بُغية الحصول عليها .

بل وكانوا يصادقون تجار الكتب في كل مكان ليدلوهم على ما صدر منها وما هو بسبيله إلى الصدور .

وكان يحدث كثيراً أن يشتروا الكتب من مؤلفيها أو ناشريها ؛ لتصدر في الأندلس قبل أن ترى النور في بغداد أو الموصل أو البصرة أو مصر . وللأسف كان مصير هذه المكتبة نفس مصير المكتبات المشرقية من الحرق والسلب والنهب والتخريب .

ذلك أنه بعد وفاة الحكم ولي الأندلس المنصور ابن أبي عامر ، وقد أراد أن يرضي العامة والفقهاء في زمانه فأخرج من المكتبة جميع الكتب الفلسفية ، وأضرم فيها النار في الميدان العام في قرطبة .

أقسام المكتبة : كان المبنى المُخصَّص لذلك يضمُّ عدداً من الأقسام ، منها قاعة الكتب وهي أصل المكتبة ، ومركز البحث والتأليف ، ومركز النقل والترجمة ، ومركز التدقيق والمراجعة .

أما وظائفها الخاصة فكانت كما يلي :

المكتبة : كانت تشمل عدداً كبيراً من الكتب التي كان يجمعها الأمراء من كل حدب وصوب حتى بلغت هذه الكتب أربعة آلاف مجلد .

وكان تنظيم المكتبة من الداخل يعتمد على الفهارس الموضوعية ، وقد بلغت هذه الفهارس التي فيها تسمية الكتب وأسماء المؤلفين نحو أربعة وأربعين فهرساً لكل موضوع ، وفي كل فهرس عشرون ورقة .

مركز البحث والتأليف : وهو يشمل فئات من الباحثين والمؤلفين كل على حسب تخصصه فكان فيها من العلماء المتخصصين في مختلف فروع المعرفة . وكان يتم تكليف بعض علماء الأندلس للتأليف في تخصصات معينة ومن أمثلة ذلك : تكليف محمد بن الحارث الخشني لتأليف بعض الكتب للمكتبة منها : كتاب تاريخ قضاة قرطبة ، وكتاب فضائل الإمام مالك .

مركز النقل والترجمة : كان مركز النقل والترجمة يزود المكتبة بالمصنفات في الحضارة الأجنبية والفكر العالمي ، ومن ثم اهتم القسم بترجمة أمهات الكُتب من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية .

وقد عمل في قسم الترجمة نخبة ممتازة من المترجمين الذين يجيدون اللغات الأجنبية خاصة اليونانية واللاتينية منهم عبد الله الصقلي ومحمد النباتي . وكان أكثر العلوم التي تُرجمت في المجالات العلمية كالطب والهندسة والفلك . مركز التدقيق والمراجعة : كانت مهمة هذا القسم مراجعة الكتب وتصحيحها وتهذيبها سواء المؤلفة أو المترجمة حتى تصبح خالية من النقص العلمي أو العيب المادي ، وكان يعمل في هذا القسم نخبة من العلماء المعروفين والمشهود لهم بغزارة علمهم وتميزهم في كل تخصص .

ومن خيرة هؤلاء العلماء الرياض محمد بن يحيى الأزدي ، وأبو محمد ابن أبي الحسن الفهري القرطبي ، ومحمد بن معمر الجياني .

إدارة المكتبة : شملت المكتبة فئات من العاملين منهم فئة المؤلفين وفئة المترجمين ، وفئة منتجي الكتب وتشمل النساخين ومن في حكمهم كالمراجعين والمجلدين ، والمزخرفين ، وفئة المتخصصين في شؤون المكتبات كالقائمين بالأعمال الفنية

والخدمات المكتبية ، بالإضافة إلى فئة العمال والسعاة الذين يقومون بعمليات الأمن والحراسة وتنظيم الفراش وأثاث المكتبة.

وكان الأفراد في كل فئة يعملون تحت إشراف مسئول يتولى شؤون العمل من حيث توزيعه عليهم وتجهيز مستلزماته .

وكان يشرف على هؤلاء جميعاً من الناحية العلمية والإدارية "خازن" كانت وظيفته تماثل وظيفة رئيس المكتبة أو مدير المكتبة .

وكان يتولى وظيفة الخازن أحد أساطين العلماء ، أو أحد مشاهير الأدباء بحيث يسمح عمله وتتيح ثقافته وخبرته القيام بهذه المسؤوليات الجسام على أكمل صورة .

انظر: مواضع من كتاب: المكتبات في العصور الإسلامية، منصور محمد

سرحان ، وموقع (<http://vb.altareekh>) باختصار .

❖ ومن المؤسسات الخيرية في تاريخنا: مؤسسة رعاية وإيواء النساء اللاتي طلقن أو

مات أزواجهن:

ومن ذلك: تلك الدار التي بنتها تذكارة خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس في سنة أربع

وثمانين وستمائة (٦٨٤)، وأسندت تعاهد النساء فيه والقيام عليهن إلى الشيخة الصالحة

زينت ابنة أبي البركات، المعروفة ببنت البغدادية، فأنزلتها به ومعها النساء الخيرات،

يقول المقريزي وقد ظلت هذه المؤسسة قائمة إلى وقته [ت: ٨٤٥ هـ]: "وما برح إلى وقتنا هذا

يعرف سكانه من النساء بالخير، وله دائماً شيخة تعظ النساء وتذكرهن وتفقههن

..وأدركنا هذا ، وتودع فيه النساء اللاتي طلقن أو هجرن حتى يتزوجن أو يرجعن إلى

أزواجهن صيانة لهنّ، لما كان فيه من شدة الضبط وغاية الاحتراز والمواظبة على وظائف

العيادات "المواعظ والاعتبار" (٣٠٣/٤)

وهذه بلاشك مؤسسة خيرية جليلة وخطيرة، وفيها سبق للأمم إلى مثل هذه الرعاية

الاجتماعية المنظمة والخيرية .

❖ **ومن المؤسسات الخيرية في تاريخنا:** مؤسسة شاملة لما بعد الموت "مغاسل للموتى" مع التكفين والصلاة عليهم، وقُف على هذه المؤسسة وقف الطرحاء الذي أنشأه بيبرس لتغسيل فقراء المسلمين وتكفينهم ودفنهم .

وتتكون المغاسل عادة من عمارة كبيرة تضم مغسلا للموتى، ينقسم إلى قسمين: أحدهما: للرجال. والآخر للنساء .

فضلا عن مخازن لحفظ محتويات المغسل والأدوات المستخدمة في تجهيز الموتى. ويلحق بها مصلى صغير به ميضأة بها فسقية للوضوء ، وحوض لسقي دواب المشيعين.

وقد وُجد في القاهرة وحدها ما يزيد على الخمسة عشر من هذه المغاسل والمصليات

موسوعة الحضارة العربية الإسلامية (٤٣٩/٣).

❖ **ومن المؤسسات الخيرية في تاريخنا:**

- بناء الخانات والفنادق للمسافرين المنقطعين وغيرهم من ذوي الفقر .
- ومنها: بناء بيوت خاصة للفقراء يسكنها من لا يجد ما يشتري به أو يستأجر داراً.
- ومنها: السقايات أي تسبيل الماء في الطرقات العامة للناس جميعاً.
- ومنها المطاعم الشعبية التي كان يفرق فيها الطعام من خبز ولحم وحساء وحلوى

- ومنها: بيوت للحجاج في مكة ينزلونها حين يفدون إلى بيت الله الحرام، وقد كثرت هذه البيوت حتى عمت أرض مكة كلها.

- ومنها: حفر الآبار في الفلوات لسقي المشاة والزروع والمسافرين، فقد كانت كثيرة جداً بين بغداد ومكة، وبين دمشق والمدينة، وبين عواصم المدن الإسلامية ومدنها وقراها، حتى قل أن يتعرض المسافرون في تلك الأيام لخطر العطش.

- ومنها أمكنة المراقبة على الثغور لمواجهة خطر الغزو الأجنبي على البلاد، فقد كانت هنالك مؤسسات خاصة بالمرابطين في سبيل الله، يجد فيها المجاهدون كل ما يحتاجون إليه من سلاح وذخيرة وطعام وشراب، وكان لها أثر كبير في صد غزوات الروم أيام العباسيين، وصد غزوات الغربيين في الحروب الصليبية عن بلاد الشام ومصر. ويتبع ذلك وقف الخيول والسيوف والنبال وأدوات الجهاد على المقاتلين في سبيل الله عز وجل، وقد كان لذلك أثر كبير في رواج الصناعة الحربية وقيام مصانع كبيرة لها في بلادنا، حتى كان الغربيون في الحروب الصليبية، يفتون إلى بلادنا أيام الهدنة ليشتروا منا السلاح، وكان العلماء يفتون بتحريم بيعه للأعداء، فانظر كيف انقلب الأمر الآن فأصبحنا عائلة على الغربيين في السلاح لا يسمحون لنا به إلا بشروط تقضي على كرامتنا واستقلالنا.

- ومن المؤسسات الخيرية لإقامة التكافل الاجتماعي، التي كانت عجباً من العجب:

- مؤسسات للقطاع واليتامى ولختانهم ورعايتهم.
- ومؤسسات للمقعدين والعميان والعجزة، يعيشون فيها موفوري الكرامة لهم كل ما يحتاجون من سكن وغذاء ولباس وتعليم أيضاً.
- وهناك مؤسسات لتحسين أحوال المساجين ورفع مستوى تغذيتهم بالغذاء الواجب لصيانة صحتهم.
- ومؤسسات لإمداد العميان والمقعدين بمن يقودهم ويخدمهم.
- ومؤسسات لتزويج الشباب والفتيان العزّاب ممن تضيق أيديهم أو أيدي أوليائهم عن نفقات الزواج وتقديم المهور.. فما أروع هذه العاطفة وما أحوجنا إليها اليوم!
- ومنها: مؤسسات لإمداد الأمهات بالحليب والسكر، وقد كان من مبرات صلاح الدين أنه جعل في أحد أبواب القلعة في دمشق ميزاباً يسيل منه الحليب، وميزاباً آخر يسيل منه

الماء المذاب فيه السكر، تأتي إليه الأمهات يومين في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن وأولادهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر.

- وآخر ما نذكره من هذه المؤسسات: المؤسسات التي أقيمت لعلاج الحيوانات المريضة، أو لإطعامها، أو لرعايتها حين عجزها، كما هو شأن المرج الأخضر في دمشق، فقد كان وقفاً للخيول والحيوانات العاجزة المسنة ترعى منه حتى تلاقي حتفها. بتصرف من كتاب: من روائع حضارتنا ص ٩٧ .

❖ الخاتمة:

فهذه أنواع من المؤسسات الخيرية التي قامت في ظل حضارتنا، فهل تجد لها مثيلاً في أمة من الأمم السابقة؟ بل هل تجد لكثير منها مثيلاً في ظل الحضارة الراهنة؟ إن تاريخ أمتنا ناصع مشرق مبدع، تاريخ تفرد بروائع يوم كانت الدنيا كلها في غفلة وجهل وتأخر وتظالم.

فنسأل الله أن يوفقنا لخدمة ديننا وإصلاح دنيانا به كما فعل سلفنا الصالح، وكما يأمرنا ديننا، دين الرقي والحضارة والنظام والعدل والخير.